جديدة للتنفس ، ممثلة فى حدائق عامة خضراء مزهرة ، وملاعب للأطفال . واستمدت المدن الكبرى من فيينا ما قرره عمدتها « كارل لوجر » من تكفل الدولة ـ مع خدمات الغاز ، والماء النقى ، والترام ـ بإنشاء بيوت الأيتام ، والإنفاق عليها ، وكذلك مؤسسات دفن الموتى ، وإحاطة العاصمة ـ كما فعل هو فى فيينا ـ بحزام أخضر من الأشجار والحدائق الفسيحة فكان « لوجر» نموذجاً فذًّا للبطل « الاشتراكى » ، محبوباً من الجماهير التى أعادت انتخابه عمدة للمدينة من عام ١٨٩٠ إلى ١٩١٠ م .

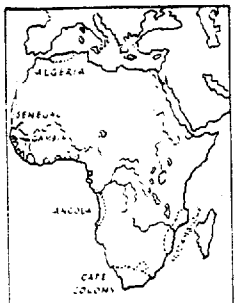

European Colonies in Africa -1878

هكذا شق العمال طريقهم فى مسار القرن العشرين ، وأخذ يتسع ويتسع ، وأصبحوا قوة فعالة مؤثرة فى سياسات الأحزاب ، وما يصدر من تشريعات، وفى توجيه الرأى العام ، وفى شئون الدولة ، بعد أن صار التعليم إجبارياً ، وظهور الصحافة الشعبية والعمالية : فى إنجلترا ، وفرنسا ، وهولندا ، وبلجيكا، وألمانيا ، وإيطاليا ، وسويسرا ،والدول الإسكندنافية . وانخفضت نسبة الأمية فى بعض هذه الدول إلى ٥٪.

وتقاربت المسافات بين الطبقات .. ضاقت الهوة ، وتضاعفت القوة ، وزادت روابط الألفة والأخوة داخل مجتمعات طابعها الرأسمالية الحرة . ورفعت شعار القومية والوطنية ، مقابل ـ على الجانب الآخر ـ الماركسية العمالية (البروليتارية) ؛ فاستقر النظام الاجتماعى على قاعدة قوية راسخة ثابتة ، فحواها : الدولة .. الوطن .

لُعبة الحرب والسلام

عندما اقترب القرن العشرون من نهايته ، حدث شىء عجيب ، فاجأ العالم كله ، إذ لم يكن فى الحسبان : انهار الاتحاد السوفيتى (لا «امبراطورية الشر » كما أطلق عليها الرئيس الأمريكى رونالد ريجان) [١].. فكان هذا الانهيار المدهش إيذاناً بزوال شبح التهديد بصدام مُهلك خطير ـ تدخل

(١) لابد أن نذكر هنا توقعات بعض المفكرين والسياسيين ـ فى الشرق ، كما فى الغرب ـ عن فشل النظام الشيوعى قريباً فى وقت ما ، نتيجة لمثالب فى النظرية ، وفى التطبيق . وعلى سبيل المثال : الأستاذ عباس العقاد فى أكثر من كتاب ومقال ، والرئيس الفرنسى شارل دوجول ، الذى كتب فى مذكراته قبيل وفاته (١٩٧٠) أنه بعد نحو عشرين سنة لن يكون للاتحاد السوفيتى وجود ، وهذا ما وقع بالفعل . لم تكن نبوءة .. وإنما هى تقدير ، وحس رجل دولة سياسى رفيع المستوى .

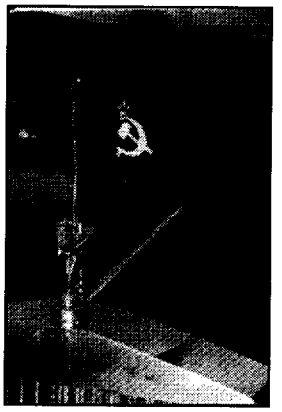

الأسلحة الذرية بين أدواته ـ بعد أن ساد التوتر والصراع معظم مناطق العالم طوال هذا القـرن ، بسبب التنافس الحاد ـ والسـاخن أحيـانا ـ بين قطبى التنازع على سيـادة العـالم : الاشتراكيـة الشيوعيـة ، وكتلتهـا من جـانب ، والرأسماليـة الغربيـة ، وأنصارها من الجانب الآخـر .. فكان سلام العـالم وشعوبه دائماً فى دائرة القلق والخطر، خاصـة فى النصف الثانى من القرن ، وفيما عُرف بالحرب الباردة. تنفس العالم بارتياح ، وتنوعت مشاعر الدول ، والأمم ، والأفراد ، والشعـوب. كثير من هؤلاء استبشر خيراً بسيادة عصر من السـلام والسـلامـة والهدوء ، مع نشـاط أكبر وأوسع فى مجالات التجـارة ، واتساع نطـاق الأسواق الحرة فى التبادل ، وغلبـة النظم الاقتصاديـة المنطلقة السلسة ، على الأنظمـة الموجهة المقيِّدة العقيمـة. ورحب آخرون بانتصـار ما يعرف بـالديمقراطية فى السيـاسة والحكم على الشمـولية ، أو الديكتـاتورية المسيطرة القـابضـة ، لأن هذا الانتصـار بدوره يتيح فـرصـاً أكبر وأوسع للاستقرار والعيش فى سلام ، خاصة مع ثورة الاتصال والمعلومات، وتطور وسائـل النقل والسفر ، وتبادل التجـارة، فيستحيل بذلك نشـوب حرب ، أو التهـديد بإشعال حـرب تفسـد مصالح الجميع . وتفـاءل غيرهم بأن توازن القـوى الجديد الذى يحظى برضـا الجميع ، وبمكان كل منهم من العـالم ومصالحه ، يحفـز الكل إلى حماية الأمن ، وحفظ السلام ، فـلا بديل.. وكأنما التاريخ يدخل منعطفاً جديداً ، يبدأ به مسيرة القرن الحادى والعشرين . لكن استقراء التـاريخ يحمل على الاعتقاد بأن لا جـديد تحت الشمس ، كما قيل .. إذ ليست هذه أول مرة يأمل فيهـا الناس ويترقبون طلوع فجـر جديد مشرق بالرخـاء والسلام ، والأمن والاستقـرار ، بعـد ليل طويل ظالم مظلم . كما أن الآمال وحدها ورغائب الناس ليست هى التى تصنع دائماً وقائع التاريخ ، أو تحدد مسار الأحداث . وهذا مثال :

نابوليون بونابرت

فى أعقاب قيـام الثورة الفرنسيـة (١٧٨٩) التى أطاحت بالحكم الملكى ، وأعلنت شعار « الحرية ـ الإخاء ـ المساواة » ، فأبهرت معظم الناس حينذاك، خُـدع خلْق كثيرون ، حتى من بين المفكـرين والعلماء ، وظنوا أنها بداية عصر طويل من السلام والنعيم ، وبعض هؤلاء كان داخل إنجلترا الملكيـة الصارمة شديدة العـداء لفرنسا وللثـوريين . وفى عام ١٧٩٢ ، أعلن العـالم الإنجليزى «جوزيف بريستلى » عن اعتقـاده الراسخ بأن « الاتفاقـات التجارية الأخيرة بين انجلترا وفرنسـا ، وبين الدول الأخرى التى عُـرفت بالعـداوة فيما بينها ،

يبدو أنها أظهرت بداية استعداد الجنس البشرى لتفهم أن الحرب حماقة وجنون ، وأننا على وشك الدخول فى عصر جديد من الاستقرار الذى يعم العالم بأجمعه، أو على الأقل سوف يشمل ربوع أوروبا » . وبعد سنوات قلائل .. كانت أوروبا بالذات ، ومصر والشام ،تشتعل بحروب ومغامرات نابوليون بونابرت ، وتخلّف خسائر فى الأرواح بالملايين ،وخراباً ودماراً بمئات الملايين.

ولم ينقشع الأمل ، ولم ينقطع الظن باقتراب عهد جديد من السلام الدائم، بعد أن تعلم الناس ، وتألمت الدول من ويلات النزاع المسلح والحروب .. فيكتب « جون ستيوارت ميل » عام ١٨٤٨ ، بعد جيل واحد من حروب نابوليون ومؤتمر فيينا (عام ١٨١٥ الذى وضع اتفاقية سلام أوروبا ومستقبلها بعد هزيمة نابوليون الحاسمة الأخيرة)،كتب ميل يقول : « إن اللجوء إلى الحرب أصبح أمراً ممقوتاً مهجوراً ، بعد أن تمت تقوية ومضاعفة الروابط والمصالح الشخصية التى هى بطبيعتها معادية للحرب .. إن التوسع البعيد المدَى ، والتزايد المتسارع فى التجارة الدولية هما الضمان الرئيسى لسلام العالم». وتغنّى ـ مثله ـ مفكرون كبار فى كل أوروبا بآثار حرية التجارة على تدعيم السلام والاستقرار لأحقاب طويلة قادمة ، تخيلها البارزون فى حاشية الملكة فيكتوريا (ملكة بريطانيا) بأنها ستمتد إلى ألف سنة من الرخاء والأمن والازدهار الاقتصادى والحكم الديموقراطى .

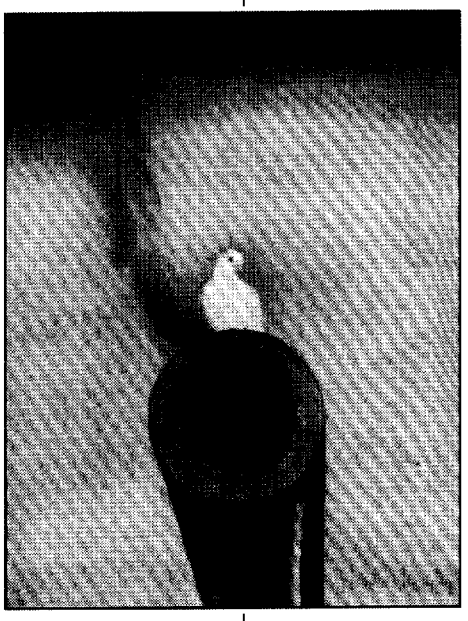

لكن الذى حدث بالفعل ، أن العراك لم يتوقف ، والحروب الصغيرة ظلت تشتعل[٢] ، ثم بعد مائة عام بالتمام من توقيع معاهدة أو اتفاقية فيينا ، تجتاح العالم(١٩١٤) حرب شاملة طاحنة لم يشهد لها مثيلاً من قبل ، ثم تلتها (١٩٣٩) أخرى أشد دماراً وفتكاً وإهداراً للأرواح والقيم والأموال والمدن والممتلكات .

وبعد منتصف القرن التاسع عشر ، مع

(٢) نذكر منها على سبيل المثال : حرب تركيا ـ اليونان (١٨٢٢) ، غزو روسيا لتركيا (١٨٢٨) ، مساندة بريطانيا وفرنسا لليونان فى حربها مع تركيا (١٨٢٩) ـ غزو فرنسا للجزائر (١٨٣٠) ـ جمهورية البوير والصراع ضد إنجلترا فى جنوب أفريقيا (١٨٣٦) ـ حرب الأفيون بين إنجلترا والصين (١٨٣٩) ـ أنتفاضات ثورية دامية (١٨٤٨) فى فرنسا ، وألمانيا والنمسا،وبولندا ، وإيطاليا ـ حرب القرم (١٨٣٦) بين تركيا وروسيا ـ الحرب الفرنسية الروسة (١٨٧١) .

تطـــور تكنولوجيـــا الأسلحـــة وأدوات الحـــــروب والنظـــم العسكرية، زعم فريق من المفكرين والكتاب أن « الحرب أصبحت مستحيلة » لأن العاقل الحازم الحكيم لا يفكر فيها كوسيلة لفض المنازعات وحل المشكلات،حيث إنها الآن شديدة الفتْك والتدمير ، ولا تجلب إلا التلف وإفساد مصالح كل المشتركين فيها .. فالتهديد بها ـ فقط ـ خير ألف مرة من المخاطرة بإشعال فتيلها . ومع ذلك .. لم يتوقف التهديد والوعيد ، ولا المغامرة بالمقامرة ، فاندلعت نيران حروب مهلكة متشابكة .. إذ يبدو أن الشجار أو العراك هوًى غلاب ، وطبيعة محركة عند بعض الناس ، مهما توارى ذلك خلف أقنعة ومسوح حضارية ، وبواعث زائفة منطقية ! .

ثم أقبل القرن العشرون . وزاد اعتقاد الناس ، خاصة لدى المثقفين والمستنيرين ، بأن التقدم العلمى والتكنولوجى يمكن أن يسهم بقدر كبير فى تطوير البيئة نحو الأحسن ، وفى إصلاح الإنسان ، وتوجيهه نحو الأفضل ، فكراً ، وسلوكاً ، وكفاءة ، وانضباطاً، فيشارك عن رضا واقتدار فى صنع التقدم والثراء والرخاء ، وفى المحافظة بإرادة وحزم على السلام والوئام . ولتحقيق ذلك ... يكفى التنبيه والتنوير ، وإثارة العزائم ، والطَّرْق المستمر لإشعال الحماس، حتى لا يفْتُر أو يضيع . ومن عجب ، أن يلتقى المتفائلون والمتشائمون ـ فى مطلع القرن العشرين ـ عند دفْع الإنسان المتحضر فى النهاية ، إلى تحقيق هذا الهدف الجميل النبيل : أن يسود السلام ، فيعيش العالم أحقاباً خالية من الصراعات الدموية والحروب . ثم خاب ظن هؤلاء وهؤلاء .

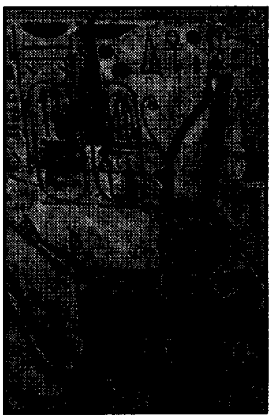

إن الإيمان بتطور أساليب التعامل والتعايش ،وبتقدم الأمم والحضارات، لا ينفى الظن بأن « الحرب » جزء دائم موصول مركوز فى خبرات الإنسان المتوارثة منذ بداية الحضارات والمدنيات الأولى وعبر العصور .

فى كتاب « دروس التاريخ » [٣]،يذكر « ويل ديورانت » أنه أجرى حساباته الدقيقة من واقع الأحداث ، فوجد أن العالم المعروف المسكون بالبشر ،لم يَنْعم بالسلام الحقيقى ، أى العيش بلا حروب ، إلا لفترات زمنية ، مجموعها ٢٦٨ سنة فقط خلال الـ ٣٤٢١ سنة الماضية .

ويشير « آرثر فريل » فى كتابه « بدايات الحرب » [٤] إلى أن الجيوش

---

(٣) The Lessons of History - New York (1968) .

(٤) The Origins of War (London - 1985)

المنظمة المتقاتلة عُرفت فى التاريخ القديم مع العصر الحجرى منذ عشرة آلاف سنة على الأقل ، وأنها أقامت الحصون والسدود لتحمى نفسها وأهلها من عدوان الآخرين ، وأن الحضارات المصرية الأولى ـ وكذلك حضارة ما بين النهرين ـ كانت أول من أدخل عناصر جديدة وأدوات مستحدثة فى فنون الحرب والقتال ، فكانت من أوائل الذين توسعوا وامتلكوا عن طريق الحرب ، ثم تبعهم الصينيون والإغريق والرومان .

إن إشعال نيران الحرب ، تيار سار متدفق مع مجرى التاريخ ، لم يكد يتوقف، وربما لن يكون : لأنه ـ للأسف ـ عند البعض رغبة ، وعند آخرين ضرورة لا بديل عنها ولا محيص . هل هذا صحيح ؟ ، وما مقدار الصواب أو الخطأ فى زعم أولئك ، وفى تقدير هؤلاء ؟ ومَن المستفيد ؟ وهل كان فى الإمكان تجنُّب نشوب حروب طاحنة مهلكة مخربة ، كالتى وقعت فى القرن العشرين؟. ما هى النتائج ؟ وما الثمن ؟ ومن دفع؟..إن دراسة ذلك بوعى وأناة وعمق ، قد ينبه ويحذِّر ويحفظ ويعصم ، وربما يَحُول دون الإسراع إلى التهلكة ، وويل لمن لا يتعلم من دروس التاريخ ! .

بداية ، قد لا نجد حرجاً فى طرح بعض الأسئلة ، لأنها سوف توضح مسار البحث الذى نبتغيه . والسؤال أحياناً قد يكون أصعب من الإجابة .

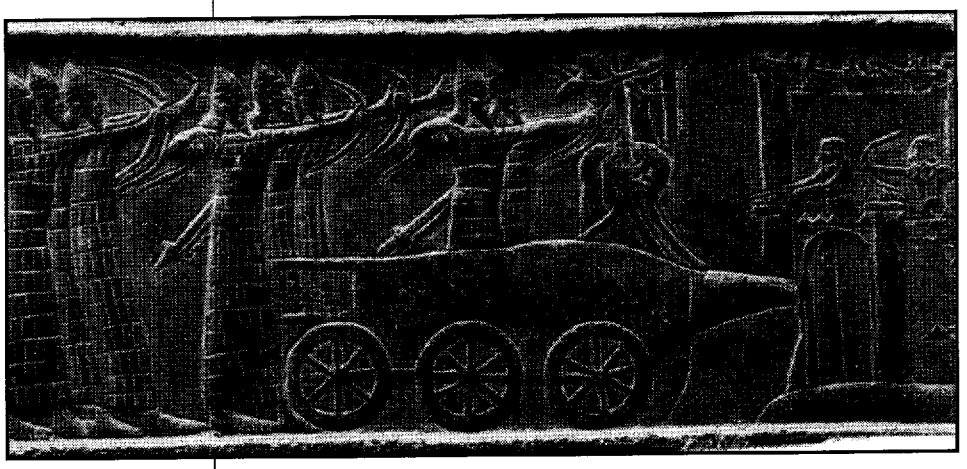

(٥) The Causes of War - M. Howard - Cambridge - 1983 .

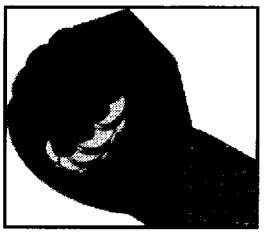

ـ لماذا يتعارك الناس ، وبالتالى الدول .. فضلاً عن القبائل والعشائر ـ ويتصارعون إلى حد التقتيل والتدمير والإبادة ؟!.

ـ ما الفرق بين « الفتوة » أو « البلطجى » الذى يفرض إرادته ومطالبه ـ غير المشروعة ـ بالقوة والقهر على فئة ، أو شارع ، أو حى من الأحياء ، أو قرية ، وبين دولة تفعل نفس الشىء ، ولكن بأسلوبها وأدواتها ووسائلها ؟ .

ـ هل التعبيرات التى نسمعها اليوم ـ وطوال القرن العشرين ـ ونتداولها فى أحاديثنا وكتاباتنا ، مثل « الإمبريالية » ، و« الديكتاتورية » و«الديمقراطية » و«الأرستوقراطية » ..هل كانت معروفة متداولة قديماً ؟ .. نعم ، إن لم تكن بالاسم ، فإن مظاهرها كانت قائمة بالفعل ، منذ الحضارات الأولى .. ولكن فى القرن العشرين ـ وقبيل مطلعه ـ تغيرت دوافع وأسباب تلك المفاهيم والتعبيرات ـ وبالتالى بواعث ودوافع الحروب ـ وإن بقيت مدلولاتها ومظاهرها العامة كما هى. مثلا : قديماً ، وحتى القرن التاسع عشر ، كانت فى معظم أوروبا الملكية ، والحاشية ، والطبقة الأرستوقراطية ، وقادة الجيوش وكبار العسكريين الذين يمثلون دعامة وحماة السلطة ، وسند صاحب السلطان ، وذراع المملكة القوى الباطش . الآن ، فى القرن العشرين تحولت هذه كلها ، أو أُضيفت إلى صيغ جديدة تلائم روح العصر وأفكاره ومستحدثاته ، فأصبحت غالباً : السلطة الحاكمة ، وقادة السياسة ، وزعماء الأحزاب والنقابات ، والمؤسسة العسكرية ، مع صراع الطبقات ، وسباق التسلح ، وتحالف الأنظمة ... وسقطت عروش وممالك ، ومعها حاشيتها ، وطبقة أريستوقراطيتها ، وهؤلاء جميعاً كان بأيديهم مقدرات الحرب والسلام . ومع ذلك .. لم تتوقف الحرب ، ولم يَدُم السلام .

فى الدراسات الحديثة ، يرى البعض أن الحروب ، أو الصراعات المسلحة فى القرن العشرين كان باعثها غالباً : التنافس على القوة والنفوذ [٥]:ففى عام ١٩٣٩ ، كان معظم البريطانيين ،يبررون الفشل فى قضية معينة أثارت خلافاً فى مفاوضات ، ولم تجد تسوية مُرْضية ، ولكن بدافع تدعيم نفوذهم وقُوتهم قبل أن يروْا أنفسهم معزولين جانباً ، لا يجدون لنفوذهم وقوتهم ما يحتفظون به ويدعمونه ، وهذا هو المهم ، فيرضخون لقبول مرتبة الأدنى التَّبيع ، فى نظام عالمى يسيطر عليه منافسوهم . وفى تقدير كثير من الناس

---

(٦) On The Origins Of War and The Preservation of Peace - Donald Kagan - New - york (1995) .

ومؤرخى القرن العشرين الكبار ، أن كلمة « power » ـ أى : القوة مع النفوذ والسلْطة ـ كلمة عسيرة التقبل ، سيئة الإيقاع ...فهى فى أساس مغزاها توحى بالرغبة فى فرض إرادة طرف (شخصى ، أو دولة) على طرف آخر ، وعادةباستخدام القوة ومن هنا .. توارث الناس مفهوم أن القوة ذات النفوذ والسلطة : سيئة كريهة . لكن القوة فى حقيقتها محايدة : « إنها القدرة على تحقيق رغبات ومطالب ، قد تكون جيدة أو رديئة .كما أنها أيضاً تعنى القدرة على مقاومة مطالب ورغبات الآخرين الجبرية المتعنِّتة . وفى المعنى

أفريقيا سنة ١٨٣٠ خالية تقريبا من الاستعمار .

الأخير ، نجد أن القوة ضرورية ولا غنىً عنها لاكتساب الحرية والمحافظة عليها . ولقد أُبْلِغْنا أنه فى مملكة الإله الخالدة، لا حاجة ولا ضرورة لامتلاك الناس للقوة ، أما فى هذا العالم الذى نعيش جميعا فيه ، فإنها ضرورة لازمة ، والنضال من أجلها لا مَحيد عنه » (٦).

(١) التفاصيل فى محتوى جزء قادم من هذه السلسلة بإذن الله .

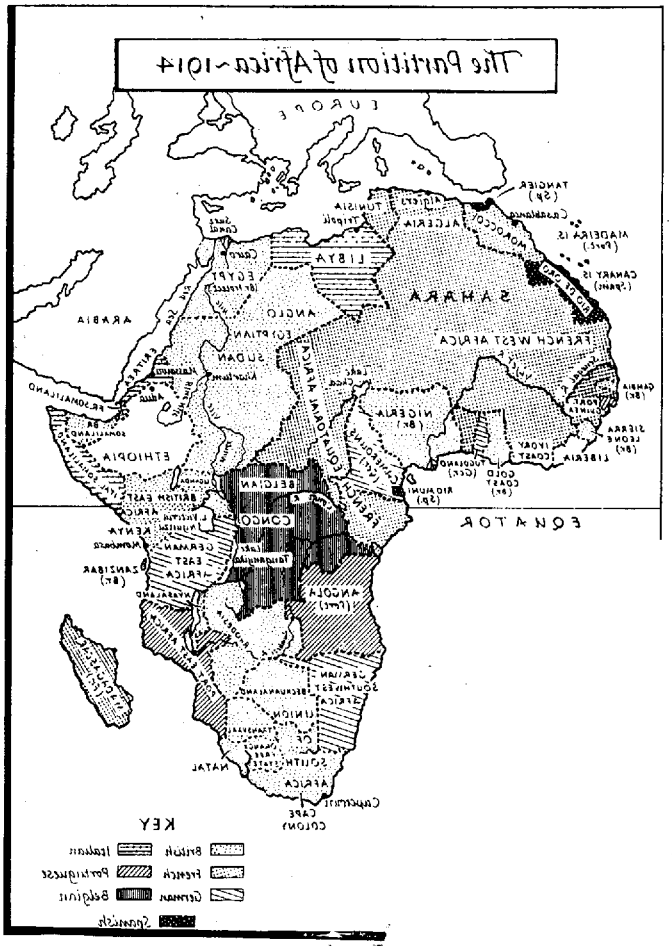

أفريقيا سنة ١٩١٤ مقسمة بين دول الاستعمار الأوروبى

إذا كان من أبرز صفات الإنسان ـ العاقل الرشيد ـ ومميزاته : التعلم من الخبرات السابقة واكتساب مخزون أو رصيد من نتائجها ينفعه مستقبلاً، ويستعين به فيما يواجه من مشكلات وأزمات وعقبات ، فإن الوقوف عند «أزمتين » كبيرتين حادتين من أزمات استخدام القوة وبسط الإدارة بالنفوذ والقهر ، فكانتا من أخطر أحداث هذا القرن ، يعتبر وقوفاً متأملاً متفحصاً لابد منه ، لأن صراعات القوة فى القرن القادم (قوة السلاح ، وقوة الاقتصاد، وقوة العقائد، وقوة الجوع ، وقوة التكتلات البشرية ..) تلوح نُذرها ، وتتراقص أشباحها من قريب ومن بعيد . « وهواة » العراك والحروب دائماً موجودون ، وتراهم أحياناً جاهزين متلهفين !(٧)

ومظهر آخر من مظاهر « لعبة » الحرب والسلام ، أو استخدام العراك والقوة والبطش ، ساد مناطق كثيرة من العالم منذ أوائل ـ ثم طوال ـ ذاك

رسم من عام ١٨٩٦ يصور رئيس قبيلة أفريقية وزوجته ، فَرض عليهما المستعمر البريطانى أن يركعا لتقبيل أقدام الضباط الغزاة أمام أفراد القبيلة .

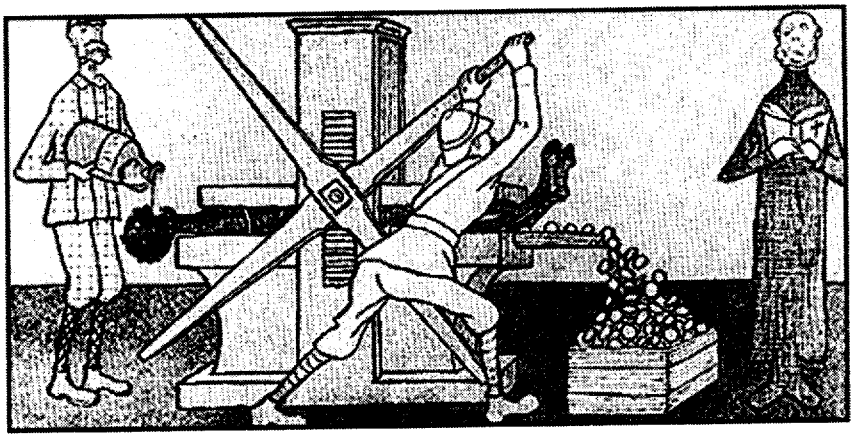

رسم فرنسى يوضح أسلوب الاستعمار البريطانى فى استنزاف أفريقيا لصالحه ، ولا يترك للأفريقى إلا ما يُبقى على حياته . وبينما يعتصره ، يتلو عليه رجل ـ إلى اليمين ـ بعض المواعظ والدعوات التبشيرية .

القرن العشرين . إنه لون جديد من « الاستعمار » ، ولكن بلا جيوش ولا معارك تُستنزف فيها الدماء ، دماء المستعمر (بكسر الميم الثانية) ، ودماء المستعمر (بفتح الميم) . يكفى فقط ـ إن كان لابد من استنزاف دماء ـ أن تكون هى دماء الوطنيين أصحاب الوطن الضعيف :الأرض ،والثروة ، والمال، والجهد ، والآمال ،والطموحات ، والسعادة ، والمستقبل..وبلا مقابل! .. إنه

استعمار ظريف ، حصيف ، مخيف ، .. واستغلال كثيف غير شريف . كيف؟. لنأخذ مثالاً على ذلك من : أفريقيا (ومثلها ـ كما سوف نتناول بالتفصيل فى الأجزاء التالية ـ فى آسيا ، وأمريكا اللاتينية ،وفى أمريكا الجنوبية) .

فى مطلع القرن العشرين ، كانت أفريقيا خالية تقريباً من آفة الاستعمار والاحتلال ، سوى بعض مناطق محدودة للغاية ومتفرقة على السواحل فى الشمـال والغـرب والجنوب. ولنتأمل الخريطة الأفريقية لعام ١٨٧٨ م ، ثم نلقى نظرة على خريطة أفريقيا المسكينة الممزَّقة عام ١٩١٤ : إنها تكاد تخلـو من بقعة مستقلة تماماً ، أو تنعم بحريتها كما كانت منذ سنوات قلائل . جاء المستعمر الأبيض بجيوشه وسلاحه وقهره وبطشه ، وماهو معروف عنه من سفك الدماء ، واستباحة الحرمات ، واستنزاف الثروات ، واقتناص العبيد (الرقيق) . وهذه بعض الصور والرسوم المنتقاة مما نشر آنذاك فى صحف وكتب الغرب نفسه ، أى فى بلاد المستعمر الدخيل المحتل .

ثم كانت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وتلتها الثانية (٣٩ ـ ١٩٤٥) فى أعقاب كل حرب ، استطاعت دول محدودة (مثل مصر) أن تحصل سلمياً على حريتها . وفى أوائل النصف الثانى من القرن ، نشبت فى

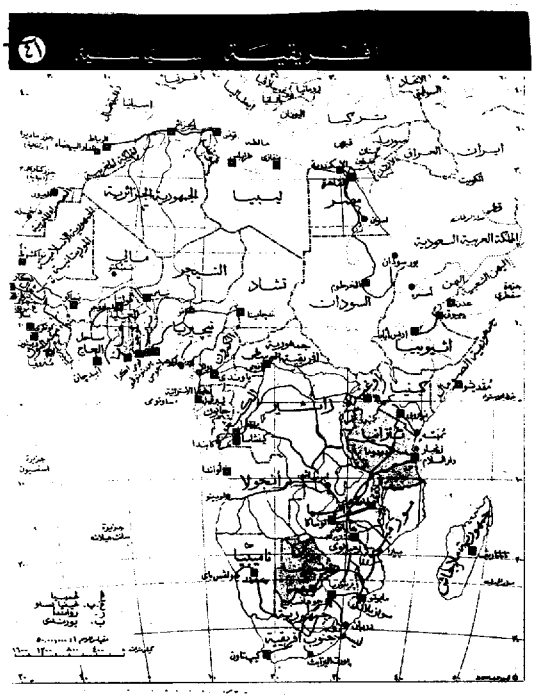

افريقيا سنة ١٩٩٠

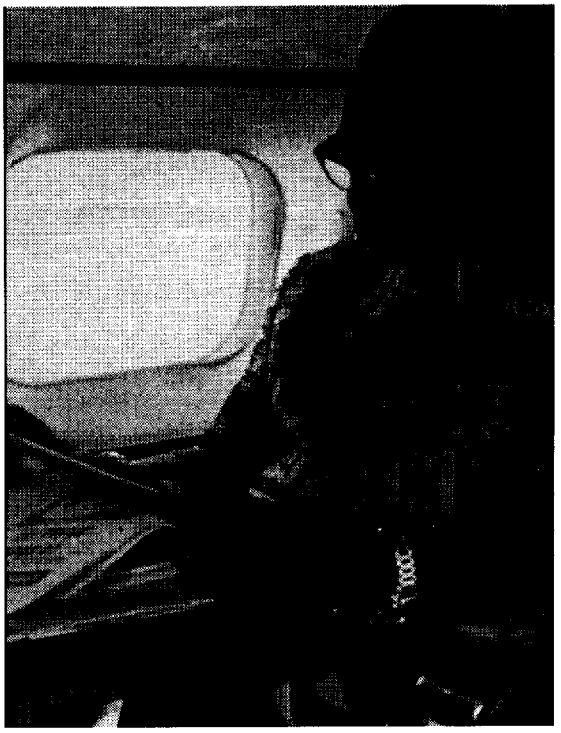

موبوتو سى سيكو كان يحتكر كل إنتاج بلده من الذهب والماس والنحاس (رابع دولة فى العالم فى انتاج النحاس) وله مجموعة من الطائرات الخاصة الكبيرة ويمتلك قصورا فى العواصم العالمية وشعبه يموت جوعا، وعلى مشهد من كل ساسة العالم قُدرت عند موته ثروته الخاصة ـ فى بنوك الغرب ـ بنحو ٩مليار دولار !!!

أفريقيا صراعات الاستقلال، سواء بدافع وطنى ، أم بتحريض من الدول الكبرى المتنافسة على سيادة وقيادة العالم . واستقل معظم الدول الأفريقية (وبعضها بتقسيمات حدودية جغرافية سيئة ، أثارت فيما بعد مشاكل ومعارك)، وإن كانت لم تسلم من الضغوط والقيود فيما عرف بمناطق الحماية والنفوذ .

لم يكن من السهل المقبول عند الدول الاستعمارية أن تترك أفريقيا وترحل عنها فى هدوء وسلام ، وهى تعلم تماماً أن كنوز الثروات الأفريقية ما زالت وافرة عامرة، على الرغم من استنزافها بقسوة طوال سنوات الاستعمار، فكانت سبب ثراء أوروبا وانتعاش أمريكا شمالاً وجنوباً (بسبب تسخير ملايين العبيد فى العمل الشاق المتواصل بلا أجور ولا حقوق) ، فضلاً عن أن أبناء أفريقيا دافعوا بأرواحهم وسواعدهم ـ بفرق عسكرية كاملة ـ عن أوروبا أثناء الحربين العالميتين .. فماذا يفعل المستعمر قبل رحيله ؟ .

اتخذ عدة وسائل خبيثة ماكرة ، لكنها مثمرة ، منها : أنه زرع الريبة والكراهية والحقد فى نفوس أبناء القبائل الوطنية (ومعروف أن معظم دول أفريقيا مازال ـ وسيظل لقرون قادمة ـ قَبَلِىّ الثقافة والمشاعر والفكر

والعلاقات الاجتماعية ، وبدرجة كبيرة ، قبل أى اعتبار آخر) ، وترتب على هذا .. فتور الثقة فيما بينهم ، ودوام التنافس الحاد ، والحرص على التفوق العرقى ، والغلبة أو السيطرة ، فيكيد بعضهم لبعض ظاهراً وباطناً ، والمستفيد هو الرجل الأبيض ، المستعمر السابق ، لأنه ما زال صاحب كلمة مسموعة ، ونفوذ غير مباشر :فى التعليم ، والاقتصاد ، والاستيراد ، والتصدير ، والتجارة، والصناعة ، والزراعة ، والتسويق ، والإعلام . ومعظم الرؤساء الأفارقة يتخذ مستشارين له من الأوربيين والأمريكيين .. وتحت مظلة البعثات التبشيرية والتدريبية والمراكز الثقافية والفنية يؤهل المستعمر القديم أو الحديث ، ويعدّ توابعه وأشياعه من الذين سيتولون قيادة الدولة مستقبلاً ، ويشغلون المناصب الكبرى والتشريعية والتنفيذية فيها ، وحتى داخل المؤسسات العسكرية التى هى أيسر وأطوع من غيرها فى إحداث القلاقل والانقلابات إذا ما اقتضى الأمر ، وهو ـ الاستعمارى المحتل السابق ـ يرقب من بعيد ، ويحرك الخيوط من قريب ، ويحتكمون إليه إذا اشتجروا ـ ويحتمون به ـ أو بمنافسه على المنطقة ـ إذا اندحروا. وفى جميع الأحوال ـ كما أظهرت الوقائع ، وكُشفت أسرار ، خاصة فى الربع الأخير من القرن العشرين ـ كانت ثروات أفريقيا « تتسلل » إلى بنوك أوروبا وأمريكا بالملايين والمليارات (وقد ذكر أن ثروة موبوتو رئيس الكونغو (زائير) الذى كان فى نشأته جندياً بالجيش، بلغت يوم طرده من بلاده أكثر من تسعة مليارات دولار ، كلها خارج وطنه ، وشعبه يئن فقراً ، ويهلك جوعاً !) . إنها ثروات البلاد والعباد المسروقة أو المنتهَبَة ، يسرِّبها ـ لحسابهم بالخارج ـ من هم فى مواقع السلطة والمقدرة والنفوذ ،فتتلقاها الدول الاستعمارية القديمة فى بنوكها ومشروعاتها ، تنعم بها وتستفيد ، وتستنزف ما يتبقى من أموال فى البلاد الأفريقية المكدودة المنكوبة بطبقتها الثرية الجديدة ، عن طريق بيع المنتجات الصناعية المصدرة إليها ، وقد تكون مواد صناعتها الأولية مشتراة من أفريقيا بأبخس الأثمان ، لأن الاتحادات والشركات الكبرى فى الغرب هى المتحكمة فى تحديد الأسعار عالمياً .

والغريب المريب ، أن الربع الأخير من القرن العشرين ، سَرتَ فيه شائعة مؤداها : أن أفريقيا لا خير فيها ولا أمل .. أى لم تَعُدْ فيها ثروات طبيعية تُستثمر ؛ فتُثْمر .. ولا أمل فى دفعها لكى تلحق بركب الحضارة الغربية

المتطورة المتسارعة . ويضربون أمثلة على ذلك : من موجات التصحر ، وهلاك مئات الآلاف من الجوع ، وقتل الملايين بوحشية فى الحروب الأهلية (الصومال ، رواندا ، بوروندى ، الكونغو ، مالى ، ليبيريا ، سيراليون ...) ، وفشل النظم الديموقراطية فى السياسة والحكم .. ثم فجأة ، تظهر أصابع اليد الأمريكية من منتصف التسعينيات ، تحرك الأحداث فى مناطق كثيرة من أفريقيا ، ويبدو من خلالها بوضوح أن الولايات المتحدة عازمة على « انتزاع» مكانة فرنسا فى مناطقها الأفريقية (الفرانكوفون) ، وعلى«احتلال» نفوذ بريطانيا ـ التى كانت يوماً عظمى ـ فى مواقعها الأفريقية (الأنجلوفون) ، بل وتعلن صراحة أن أفريقيا مازالت عامرة بالكنوز والثروات الطبيعية ، وأنها لابد أن «تستَثْمر » بحكمة وعناية . والسؤال : لصالح من ؟ أو لحساب من؟؟ ... لسوف نتناول ذلك كله بالتفصيل فيما بعد ، إن شاء الله .

فى النصف الأول من هذا القرن ـ العشرين ـ كانت السيادة فى المظهر العام للمنافسة الضارية بين أوروبا وأمريكا ، وبينهما معاً وبين شمال آسيا وشرقها (روسيا واليابان) . لم تعد القوة الصناعية حكراً على أوروبا وحدها، وبالتالى القدرة التجارية والملاحية ، واحتواء الأسواق العالمية . وبذلك حدثت تغيرات تاريخية وجغرافية ، ساعدت على تكثيفها وتسارعها أفكار جديدة ومذاهب ، بعضها ثورى دموى (كالشيوعية) ، وبعضها وطنى قومى ، مصمم على التحرر والاستقلال عن الدول الاستعمارية الكبرى ، كما حدث فى الشرق الأوسط ، وفى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . ثم تغير الكثير من الملامح وسمات القرن فى النصف الثانى منه بعد الحرب العالمية الثانية ، وإنشاء منظمة الأمم المتحدة .

فى بداية القرن ، كان عدد سكان العالم ١٥٧١ مليون نسمة . ثم زادوا عام ١٩٥٠ إلى ٢٥٠٠ مليون نسمة ، وفى عام ١٩٧٠ أصبحوا ٣٣٠٠ مليون، وفى نهاية القرن ضِعْف ذلك تقريبا .. فالزيادة مستمرة متصاعدة رغم الوفيات، وضحايا الحروب والأوبئة والكوارث الطبيعية والمجاعات ، واستخدام وسائل تنظيم الإنجاب . وكان لابد من اتساع المدن وازدحامها بالأعداد المتزايدة من سكانها ، وبالوافدين إليها من الريف للإقامة والعمل بها . وبعد أن كان عدد المدن التى يزيد سكانها عن المليون فى العالم كله لا يزيد عن العشر فى بداية القرن، تجاوز عددها المائة فى نهايته . وهذا بيان بالخمسين الأُول منها بالترتيب.

أبناء أفريقيا يهلكون بالطرقات ولا أحد فى العالم «المتحضر» يبالى ، وتحت رأس هذا الغلام المسكين كنوز وخيرات ، وأسهم آجداده فى رخاء أوروبا وأمريكا فى القرون الغابرة !

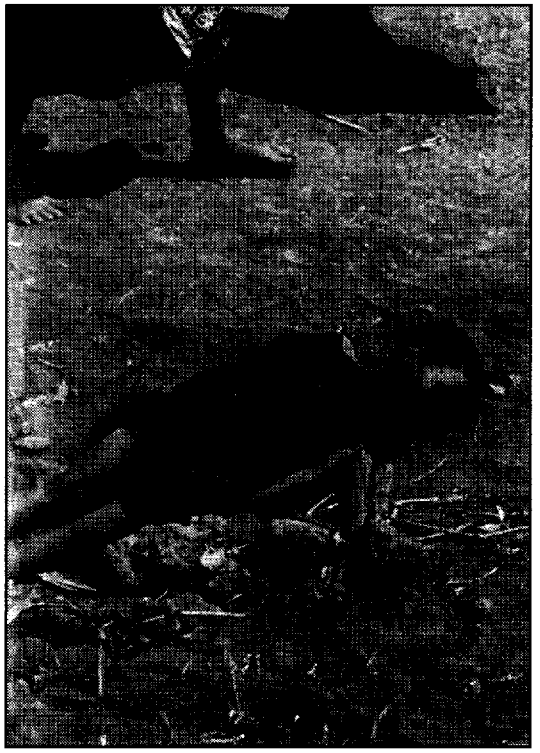

تسلسل	المدينـــــة	عدد السكان بالألف / ١٩٩٥	عدد السكان بالألف / ٢٠٠٠	معـدل الزيـادة
١	طوكيو / اليابان	٢٨٤٤٧	٢٩٩٧١	١,١
٢	مكسيكو / المكسيك	٢٣٩١٣	٢٧٨٧٢	٣,٤
٣	ساوباولو / البرازيل	٢١٥٣٩	٢٥٣٥٤	٣,٥
٤	سول / كوريا الجنوبية	١٩٠٦٥	٢١٩٧٦	٣,٢
٥	نيويورك / الولايات المتحدة	١٤٦٣٨	١٤٦٤٨	—
٦	أوزاكا / اليابان	١٤٠٦٠	١٤٢٨٧	٠,٣
٧	بومبباى / الهند	١٣٥٣٢	١٥٣٥٧	٢,٨
٨	كلكتا / الهند	١٢٨٨٥	١٤٠٨٨	٢,٠
٩	ريودوجانيرو / البرازيل	١٢٧٨٨	١٤١٦٩	٢,١
١٠	بيونس أيرس / الأرجنتين	١٢٢٣٢	١٢٩١١	١,٤
١١	مانيلا / الفيليبين	١١٣٤٢	١٢٨٤٦	٢,٤
١٢	موسكو / روسيا	١٠٧٦٩	١١١٢١	٠,٨
١٣	القاهرة / مصر	١١١٥٥	١٢٥١٢	٢,٤
١٤	جاكارتا / إندونيسيا	١١١٥١	١٢٨٠٤	٣,٠
١٥	طهران / إيران	١١٠٨١	١٤٢٥١	٤,٨
١٦	لوس أنجليس / الولايات المتحدة	١٠٤١٤	١٠٧١٤	١,١
١٧	دلهى / الهند	١٠٥٠٥	١١٨٤٩	٣,٠
١٨	لاجوس / نيجيريا	٩٧٩٩	١٢٥٢٨	٤,٨
١٩	كراتشى / باكستان	٩٧٥٩	١٢٥٢٨	٤,٨
٢٠	لندن / المملكة المتحدة	٨٨٩٧	٨٥٧٤	١,_
٢١	باريس / فرنسا	٨٧٦٤	٨٨٠٣	٠,٧
٢٢	ليما / بيرو	٧٨٥٣	٩٢٤١	٣,٧٣
٢٣	استانبول / تركيا	٧٦٢٤	٨٨٧٥	٣,٢
٢٤	تايبيه / تايوان	٧٤٧٧	٨٥١٦	٢,٦
٢٥	إسن / ألمانيا	٧٣٦٤	٧٢٣٩	٠,٥
٢٦	شنغهاى / الصين	٧١٩٤	٧٥٤٠	٠,٩
٢٧	بوجوتا / كولومبيا	٦٨٠١	٧٩٣٥	٣,٢
٢٨	بانجوك / تايلاند	٦٦٥٧	٧٥٨٧	٣,٠
٢٩	مدراس / الهند	٦٥٥٠	٧٣٨٤	٢,٩
٣٠	شيكاغو / الولايات المتحدة	٦٥٤١	٦٥٦٨	٠,٢
٣١	بيكين / الصين	٥٨٦٥	٥٩٩٣	٠,٤

٣٢	هونج كونج / الصين	٥٨٤١	٥٩٥٦	٠,٥
٣٣	سنتياجو / شيلى	٥٨١٢	٦٢٩٤	١,٩
٣٤	بوسان / كورياج	٥٧٤٨	٦٧٠٠	٢,٨
٣٥	بانجالور / الهند	٥٦٤٤	٦٧٦٤	٣,٥
٣٦	دكا / بنجلاديش	٥٢٩٦	٦٤٩٢	٤,٤
٣٧	تيانجين / الصين	٥٠٤١	٥٢٩٨	١,٢
٣٨	لاهور / باكستان	٤٩٨٦	٥٨٦٤	٣,٦
٣٩	ميلانو / إيطاليا	٤٧٩٥	٤٨٣٩	٠,٥
٤٠	مدريد / إسبانيا	٤٧٧٢	٥١٠٤	١,٤
٤١	سان بطرسبورج / روسيا	٤٦٩٤	٤٧٣٨	٠,٤
٤٢	كينشاسا / الكنغو	٤٥٩٠	٥٦٤٦	٤,١
٤٣	بغداد / العراق	٤٥٦٦	٥٢٣٩	١,٦
٤٤	برشلونة / إسبانيا	٤٤٩٢	٤٨٣٤	٢,١
٤٥	شنيانج / الصين	٤٤٥٧	٤٦٨٤	١,٠
٤٦	بلوهوريزونت / برازيل	٤٣٧٣	٥١٢٥	٣,٦
٤٧	أحمد أباد / الهند	٤٢٠٠	٤٨٣٧	٣,١
٤٨	سان فرانسسكو / الولايات المتحدة	٤١٠٤	٤٢١٤	٠,٨
٤٩	حيدر أباد / الهند	٤١٠٠	٤٧٦٥	٣,٠
٥٠	هوشى ـ منه / فيتنام	٤٠٦٤	٤٤٨١	٢,٩

الإمبريالية ، وعصر التوسع والسيطرة الأوروبية

شهدت نهاية القرن ١٩ ، وبداية القرن ٢٠ اتساع السيطرة الأوروبية بشكل غير مسبوق . ومن هنا جاء التعبير الشائع « عصر الإمبريالية » بزعامة بريطانيا وفرنسا ، الذى ورث عصر الإمبراطوريات الكبرى : النمساوية ـ المجرية ، والعثمانية التركية ، والصينية ، فى مناطقها .

كانت أفريقيا وآسيا هما المجال الأوسع لإشباع نَهَم المستعمرين الجديدين . ودخلت دول الشرق العربى تحت مظلة هاتين الدولتين بانتزاعهما من الدولة العثمانية : الجزائر لفرنسا عام ١٨٣٠ ، ثم تونس ١٨٨١ ، ثم المغرب ١٩١٢ . أما مصر التى حصل محمد على باشا على